

الشعر والنثر والكتاب
خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة

د. رابع العوي
ق. اللغة العربية وآدابها
جامعة عنابة

يتناول هذا المقال بالبحث الموازنة بين الشعر من جهة والنثر والكتب من جهة أخرى ، وذلك من خلال أنصار كل منهما خلال عصر الجاحظ خاصة مع التركيز على رأيه.

عني النقاد -فيما عنوا - بالموازنة ، فكانت أحد مظاهر الحركة النقدية البارزة، ذلك أن الطبيعة البشرية، يغلب عليها -في مختلف دروب الحياة- مترع المقارنة والموازنة بين أوجه التشابه والاختلاف في ما يجتمع لديها من موضوعات أو أشياء ، ومن ثم فقد درجت على هذا الأسلوب ، وامتدت به إلى مواقف شتى، منها ما يخص المنظوم والمنثور ⁽¹⁾ ، كالموازنة بين جيد هذا وذاك، والموازنة بين صياغة الكلام الطويل والقصير، والمسجع والمرسل، والشعر والرسائل، واللفظ والمعنى .

وهي من بين الموضوعات التي حظيت باهتمامات النقاد، لما لها من دور فعال في صناعة الكتابة، ولذا ذهب، أبو العباس محمد بن يزيد الشمالي النحوي إلى القول ⁽²⁾

إنَّ حقَّ البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاوضة شكلها، وأن يقرب بها البعيد ويحذف منها الفضول .

وقد استوى هذا في الكلام المنشور والكلام الموصوف المسمى (شعرا) ، فلم يفضل أحد القسمين صاحبه .

ومعنى هذا أن المنظوم والمنثور يستويان في قوام البلاغة، وذلك من حيث دقة التعبير عن المراد بكلام مختار وصياغة محبرة ، بحيث تتألف الكلمات، وتتأزر على أداء الجيد ضمن أدنى حد من الإيجاز الذي لا يخل بالكلام، وهو الذي عني به المفضل ((حذف الفضول، وتقريب البعيد⁽³⁾))، وعنى به الفضل الرقاشي (البلاغة) التي هي عند العربي: ((التقرب من المعنى البعيد، والتباعد من حشو الكلام، وقرب المأخذ، وإيجاز في صواب وقصد إلى حجة، وحسن الإشارة⁽⁴⁾)).

ومعنى ((التقرب من المعنى البعيد هو أن يعتمد إلى المعنى اللطيف فيكشفه، وينفي الشواغل عنه فيفهمه السامع من غير فكر فيه وتدبر له))⁽⁵⁾ وهذا لإحاطة حظ بمعناه وإجلاله عن مغزاه، وإخراجه من الشراكة، فجميعه محصور به، فإذا سمعت اللفظ عرفت أقصى المعنى، ومن ثم كان ((البليغ من طبق المفصل فأغناك عن المفسر))⁽⁶⁾ وعلى هذا الأساس فإن البلاغة قول يسير، يشتمل على معنى كبير مع وضوح الدلالة، وحسن الإشارة ، ودنو المأخذ ، وقرع الحجة، وكل ذلك بقليل من اللفظ، مع كثير من المعنى، دون ما تكلف أو سوء صنعة، ودون ما تعقيد أو احتياج إلى تأمل، فالكلام الذي قرب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب هو البلاغة، وهي أن لا تبطن ولا تخطئ إذا أجب أو قلت، أي توجز إيجاز سليما من التعقيد، يصيب المغزى من أقصر طريق ، ويستوي في هذا الشعر والنثر، ولكن ((صاحب الكلام الموصوف أحمد؛ لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه وزاد وزنا وقافية، والوزن يحمل على الضرورة ، والقافية تضطر إلى الحيلة. وبقيت بينهما واحدة، ليست مما توجد عند استماع الكلام منها، ولكن يرجع إليها عند قولها، فينظر أيهما أشد على الكلام اقتدارا

وأكثر تسامحا و أقل معاناة وأبطأ معاصرة، فيعلم أنه المتقدم))، (7) وهذا ما نص عليه المبرد، وهو بذلك قد عقد موازنة بين النظم والنثر، وبين الشاعر والكااتب من حيث المفاضلة بينهما على أساس القدرة على الكلام بلا مشقة أو تكلف، ومرد هذا إلى نصيب كل منهما من الموهبة، وعلى قدر التباين بينهما فيها يكون الفارق في المبني والمعنى، أي من حيث ترتيب الألفاظ على معانيها ورصفها رصفا حسنا تكمن فيه المقارنة بين الكلمة وجاراتها في اللفظ، والمطابقة بين المعاني والتراكيب ولا شك في أن المنطق أوسع على المتكلم منه على لشاعر، فذاك مطلق في تخير الكلام، وهذا مقيد بالعروض والقوافي، ومن ثم يكون مفضلا على الناثر إذا تساويا في درجة الجودة (8) لزيادة الشاعر عليه بالوزن والقافية وهما يقللان من حرية الكلام؛ (لأن الشعر موضع اضطراب، لهذا اغتفروا فيه الإغراب وسؤ النظم والتقدم والتأخير والإضمار في موضع الإظهار)) (9)، وجوزوا فيه ما لم يجوزه في الرسائل المثورة ((لأن الشاعر مضطر، والشعر مقصور مقيد بالوزن والقوافي، فلذلك أجازوا لهم صرف ما لا ينصرف من الأسماء وحذف ما لا يحذف منها)) (10) والفصل بين (كم) وما أضيفت إليه بالجرور (11) والفصل بين الصلة والموصول بالنداء، وبين الصفة والموصوف بما ليس معمولا لواحد منهما، وبين المعطوف والمعطوف عليه، وتقدم المعطوف على المعطوف عليه، والجار على حرف الجر، والنعت على المنعوت، وحرف على آخر (12) وتأخير المبتدأ على الخبر (13) والإضمار في موضع الإظهار (14)، والإغراب في اللفظ والصيغة وحذف بعض الأحرف (15) ومخالفة قواعد اللغة المشهورة (16)

و كل هذا لاستقامة الوزن أو اكتمال القافية، وقد بحث ذلك الأوائل بحثا مفصلا، على نحو ما نجد في كتاب ((ضرائر الشعر)) لا بن عصفور الأشبيلي، وكتاب ((ضرائر الشعر)) للقرافي .

وقد لحقوا بالشعر الكلام المسجوع في ما يجوز في الشعر ، ودافع عنهما عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي حين قبل له :

((لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكني أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والأذان لسماعه أنشط ؛ وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت)) (17)

ولهذا نبه إلى تأثير الوزن في سيورة موزون العرب أكثر من منثورهم ، قال :

وما تكلمت به العرب من جيد المنثور ، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشرة ، ولا ضاع من الموزون عشره (18)

ودافع عبد الصمد عن الموزون واضح ، وهو أكثر وضوحا في تعقيبه على قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أسجع كسجع الجاهلية - لمن قال :

يا رسول الله ، أ رأيت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح واستسهل ، أليس مثل ذلك يطل ؟ قال عبد الصمد :

لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن ، لما كان عليه بأس ، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطال حق فتشادق في الكلام (19) وفي هذا الدفاع عن السجع ((قال غير عبد الصمد :

وجدنا الشعر : من القصيد والرجز ، قد سمعه النبي صلى الله عليه وسلم فاستحسنه وأمر به شعراءه ، وعامة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالوا شعرا ، قليلا كان ذلك أم كثيرا ، واستمعوا

واستشددوا، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل. وقال غيرهما : إذا لم يطل ذلك القول ، ولم تكن القوافي مطلوبة مجتلبة ، أو ملتزمة متكلفة⁽²⁰⁾

وقد ذهب الجاحظ في هذا الدفاع إلى أن الخطباء كانت ((تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة فلا يهونهم))⁽²¹⁾ وعقد للشعر وللکلام المتنور موازنة مفادها أن الترجمة صعبة بالنسبة للشعر وميسورة بالنسبة للنثر، وذلك في قوله:

والشعر لا يستطيع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه، وذهب حسنه وسقط موضع التعجب (لا) كالکلام المتنور⁽²²⁾

ويرى أن الکلام المتنور غير المترجم أفضل من المتنور المتحول من موزون الشعر، وهذا ما عبر عنه بقوله:

والکلام المتنور المبتدأ على ذلك أحسن وأوقع من المتنور (الذي تحول من) موزون الشعر⁽²³⁾

وفي هذا السياق أورد الجاحظ رد أنصار الكتب على تساؤل أنصار الشعر عن نفاع الكتب لأهلها من الشعر المقفى، وقد تضمن ذلك موازنة بين ما تحتويه الكتب وبعض ما يختص بالشعر فهذا ((إن هو حول ثقافت، ونفعه مقصور على أهله، وهو يعد من الأدب المقصور، وليس بالمبسوط، ومن المنافع الاصطلاحية وليست بحقيقية بينة))⁽²⁴⁾ بينما ((كل شيء في العالم من الصناعات و الأرفاق والآلات، فهي موجودات في هذه الكتب دون الأشعار))⁽²⁵⁾ وهذه حجة أنصار الكتب في تقديم النثر على الشعر، ويعملون لهذا التفضيل حكما بينهم وبين أنصار الشعر، يتمثل في كتب "مثل كتاب أقليدس، ومثل كتاب جالينوس، ومثل المجسطي مما تولاه الحجاج ، وكتب كثيرة لا تحصى

فيها بلاغ للناس، وإن كانت مختلفة ومنقوصة مظلومة ومغيرة، فالباقى كاف شاف، والغالب منها كان تكميلاً لتسلط الطبائع الكاملة)) (26)

وقد دعم الجاحظ حجة أنصر الكتب بما في أيدي الناس من كتب في شتى فروع العلم، كالحساب والطب والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة وغيرها وهو بذلك يفضل النثر على الشعر، فقد جعل فضيلته ((مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب)) (27) وحكم بصعوبة ترجمته، وعدم جواز النقل عليه؛ لأنه يقطع نظمه ويطل وزنه ويذهب حسنه ، وقد أعاد هذا في موضع آخر بقوله:

ولو حولت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجز لذي هو الوزن (28)

وقد خلاص من هذا إلى ((أن الكتب أبلغ في تقييد المآثر من البيان والشعر)) (29)

وتأييدا لهذا فسح مجال القول في الكتاب، فتحدث عن الترغيب في اصطناعه (30) وبين أفضل

الكتب (31) ونفع الكتاب (32) وأورد قصيدة في صفة الكتب (33) وأفصح عما ينبغي أن تكون عليه لغتها (34) وحث على وجوب العناية بتنقيح المؤلفات (35) وقايس بين الولد والكتاب (36) وأبان عن الغاية من قوله تعالى: ((أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفي))

قال: {فذكر صحف موسى الموجودة، وصحف إبراهيم البائدة

المعدومة، ليعرف الناس مقدار النفع، والمصلحة في الكتب} (37)

وقد جاء حديثه عن وراثة الكتب طريفا بما أودعه من أفكار نيرة وخواطر مستحسنة، نقف عليها في وصفه لها بأنها ((منبهة للمورث، وكتر عند الوارث، إلا أنه كتر لا تجب فيه لزكاة، ولا حق للسلطان...)) (38) وقوله:

فخير ميراث وراث كعب وعلم ، وخير المورثين من أورث ما يجمع ولا يفرق ، ويصبر ولا يعمى ، ويعطي ولا يأخذ، ويجود بالكل دون البعض ، ويدع لك

الكتر الذي للسلطان فيه حق، والركاز الذي ليس للفقراء فيه نصيب ،
والنعمة التي ليس للحاسد فيه حيلة، ولا للصوص فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه حجة، ولا على الجار فيه مئونة (39)

ودعم رأيه هذا بمن شبهوا وراثه كتاب العلم بـ ((ما يغل ولا يستغل)) وبـ ((الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة ، ولا إلى سقي، ولا إلى إسجال بإيغار (40) ولا إلى شرط ولا تحتاج إلى أكار... الخ)) (41)

ويتبدى لنا من هذا كله أن الجاحظ يعتبر في عداد المنتصرين للنشر، لأنه غير مقيد بالوزن، وأنه يولي أهمية كبيرة لمنفعة الكتب، بينما أنصار الشعر اتخذوا من زينة الوزن والقافية وبقائه على مر الدهور أساسا لفضله وأيا كان فإن المفاضلة بين الشعر والنثر كان لها نصيب من النقد الأدبي، لأهما قطبا.

الهوامش

(1) للدكتور مصطفى الجوزو مقال : الفرق بين الشعر والنثر في رأي العرب القدامى مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء العربي، لبنان، العدد : 13 حزيران / تموز، 1981 م،

ص155-160

(2) المبرد، البلاغة : 99

(3) البيان والتبيين: 97/1

(4) كتاب الصناعتين : 53

(5) (6) الصناعتين : 48

(7) المبرد ، البلاغة : 59

(8) وكذلك الحال إذا اتفق طبة الشعر وطبة النثر ((في القدر، وتساويا في القيمة، ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى، وكان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة)) العمدة... 1988(م):

73/1

(9) الرسالة العذراء : 19

(10) الرسالة العذراء ، هامش : 19

(11) كقول أنس بن زعيم :

كم تجود مقرف نال لعلی * وكم نخله قد وضعه
وينسب البيت لعبد الله بن كریز ، ويروى أيضا لأبي الأسود الدؤلي
كتاب سيبويه 296/1 والمقتضب للمبرد 61/3 والإنصاف في مسائل
الخلاف ، لأبي الأنباري وضرائر الشعر 192/13

(12) كقول الراجز : مثل القياس انتاقها المنقى يريد انتقاها ضرائر الشعر 191

(13) كقول المتنبي وأبوك والثقلان أنت محمد العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب
157/1

(14) كإضمار حرف الجر وإبقاء عمله دون أن يعرض منه بشيء ، كقول الشاعر :
رأين خلیسا بعد أحوى تلعبت * بفودية سبعون السنين الكوامل يريد : سبعون (من)
السنين، ضرائر الشعر : 144

(15) كحذف الألف والنون من (سليمان) وقد تحذف الحركة والكلمة والجملة أنظر:
ضرائر الشعر : 88-185

(16) كحذف نون (يكن) في الجزم حين يليها ساكن ، ووقوع الضمير المتصل بعد
(إلا) وعودة الضمير على كلمة متأخرة عنه لفظا ورتبة ، مثل : لما رأى طالبوه
مصعبا ذعروا

(17) البيان والتبيين: 287/1

(18)(19) البيان والتبيين : 287/1

(20) نفسه : 287/1-288

(21) نفسه : 290/1

(22) الحيوان : 75/1

- (23)(28) الحيوان 75/1
 (24)(25)(26) نفسه: 80/1
 (27) نفسه: 75-74/1
 (29) الحيوان 75/1
 (30) نفسه: 84/1
 (31) نفسه: 86/1
 (32) نفسه: 96/1
 (33) نفسه: 94/1
 (34) نفسه: 89/1
 (35) نفسه: 88/1
 (36) نفسه: 89/1
 (37) نفسه: 98/1
 (38)(41) نفسه: 100/1
 (39) نفسه: 101/1
 (40) الإسجال : كثرة الخير والعطاء الإيعاز: العيظ ويقال : أسجل له الأمر : أطلقه، وأوغر الملك الرجل الأرض: جعلها له من غير خراج .

المصادر والمراجع

- ابن الأنباري : (ت 577 هـ / 1181م) ، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد
 1- الإنصاف في مسائل الخلاف ، ت/محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1945
 -الحافظ : (ت 255 هـ / 869م) ، أبو عثمان عمرو بن بحر -
 2- البيان والتبيين ، ت، وشرح عبد السلام محمد هارون (بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط4 ، بدون تاريخ) .
 3- الحيوان ، ت / وشرح : عبد السلام محمد هارون (بيروت، دار حياء التراث العربي، بدون تاريخ)

-الجوزو : (د.مصطفى -) :

4- الفرق بين الشعر والنثر في رأي العرب القدامى مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز

الإخماء العربي، لبنان، العدد 13، حزيران / تموز، 1981م ص 155-160

-ابن رشيقي : (ت 456 هـ / 1063 م)، أبو علي الحسن بن علي .

5- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقد: ت/محمد محي الدين عبد الحميد (مصر، مطبعة

السعادة ، ط 3 ، 1383 هـ / 1963 م، بيروت ، دار الجيل ، ط 4 ، 1393 هـ /

1972 وتحقيق : محمد حسن قرقوان (بيروت ، دار المعرفة ، ط 1 ، 1408 هـ / 1988

م

-العسكري: (ت 395 هـ / 1004 م) ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل

6- كتاب الصنائع ، الكتابة والشعر ت/علي محمد البحايي ومحمد أبو الفضل إبراهيم

طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاء (دار الكتب) ، 1971م

ابن عصفور الإشبيلي : (ت 663 هـ / 1264 م، وقيل 669 هـ / 1270 م

7- ضرائر الشعر تحقيق السيد إبراهيم محمد (بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر

والتوزيع، ط 2 ، 1402 هـ / 1982)

-المبرد : (ت 285 هـ / 897 م) ، أبو العباس محمد بن يزيد -

8- البلاغة: ، ت/د، رمضان عبد التواب (مكتبة دار العربية ، ط 1 ، 1965 م

9- المقتضب: ت/محمد عبد الخالق عطية (القاهرة، 1963 م- 1968 م)

-ابن المدبر : (ت 281 هـ / 893 م) أبو اليسر ، إبراهيم بن محمد

10- الرسالة العذراء ، مصححة ومشروحة مع مقدمة بالفرنسية عن الإنشاء ومذاهب

الكتاب في القرن الثالث: بقلم : د، زكي مبارك ، (القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ط 1 ،

هـ-1931/1350م)